

من سوريا إلى لبنان: مسارات نزوح ونضال ثلاث نساء فلسطينيات

ملخص

يقترح هذا التقرير إعادة رسم مسار نزوح ونضال ثلاث نساء فلسطينيات من سوريا، لجأن إلى لبنان بسبب النزاع الراهن. فضلاً عن إعادة بناء مراحل النزوح والاستقرار في لبنان، يتساءل هذا المقال بصورةٍ أخصّ عن التأثيرات غير المتجانسة للنزوح القسري في أشكال نشاط هؤلاء النساء اللواتي كنّ منخرطاتٍ بدرجاتٍ مختلفة قبل رحيلهنّ عن سوريا في مجالاتٍ من قبيل المساعدة الإنسانية والإعلام. عبر تطرّق هذا المقال إلى مسارات النساء، يرغب فضلاً عن ذلك في فهم إن كان "النوع الاجتماعي" يشكّل أو لا يشكّل قيماً على أشكال الاستثمار لدى هؤلاء النساء اللاجئات.

سيرة ذاتية:

حصلت على دكتوراه في العلوم السياسية من مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية EHESS بباريس وقدمت أطروحةً بعنوان: "الالتزام في اليرموك. سوسولوجيا النضال الفلسطيني في سوريا" تتعلق بمسألة الالتزامات النضالية في سياق يتسم بالنزاع والتسلط. من بين آخر منشوراتها: "حراك اللاجئيين الفلسطينيين في خضمّ الثورة السورية: الانخراط في ظل الضغوط"، مجلة كولتور إي كونفلي، العدد ٨٧، خريف ٢٠١٢، الصفحات ١١٩-١٣٧؛ "حماس والثورة السورية: خيار صعب"، مجلة ميدل إيست بوليسي، المجلد ٢٠، العدد رقم ٣، خريف ٢٠١٣، الصفحات ٧٣-٨٥؛ "المنظمات الأهلية الفلسطينية في الانتفاضة السورية. التحول النضالي وأشكال الإدارة الذاتية في أوقات الأزمات"، المجلد، العدد ٥٧، صيف ٢٠١٥، الصفحات ١١-١٦.

انقضت خمس سنواتٍ من الأزمة في سوريا^١ وأدت إلى إحدى أخطر أزمات الهجرة في التاريخ المعاصر^٢. من بين البلدان المجاورة الأشد تضرراً، يستقبل لبنان حالياً أكثر من مليون لاجئ سوري^٣، بالإضافة إلى ٤٤٥٠٠ لاجئ فلسطيني سوري^٤. يمثل الفلسطينيون السوريون أحد المكونات الأضعف^٥ في الهجرة الناجمة عن النزاع السوري، وذلك بصورة خاصة بسبب الضبابية القانونية التي تغلف وضعهم وعدم اليقين الناتج عن وضعهم الأصلي بوصفهم أشخاصاً ليس لديهم وطن^٦.

لكن على الرغم من الهشاشة التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون السوريون في هذا المنفى الجديد، فقد اخترعوا أشكالاً جديدةً من الالتزام السياسي والاجتماعي يرغب هذا المقال في لفت الانتباه إليها وذلك عبر إعادة رسم المسار النزوعي والنضالي لثلاث نساء: دنيا وربا وعتاب^٧. علاوةً على إعادة بناء مراحل الهجرة والاستقرار في لبنان، يطرح هذا المقال بخاصة تساؤلاتٍ حول التأثيرات غير المتجانسة للنزوح القسري في أشكال النشاط التي تقوم بها هؤلاء النساء اللواتي كنّ منخرطاتٍ بدرجاتٍ مختلفة قبل رحيلهن عن سوريا في مجالاتٍ من قبيل المساعدة الإنسانية والإعلام. عبر التطرق إلى مسارات النساء، يرغب هذا المقال فضلاً عن ذلك في فهم إن كان "النوع الاجتماعي" يشكل أو لا يشكل قيوداً على أشكال الاستثمار لدى هؤلاء النساء اللاجئات.

يستند هذا المقال إلى مقابلاتٍ أجريتها عن بعد عبر سكايب في آذار/ مارس ٢٠١٦ مع المحادثات الثلاث، وقد تواصلتُ معهنّ بفضل مساعدة فلسطينيين التقيت بهم في مخيم اليرموك^٨، أثناء عمل ميدانيّ أجرته بين العامين ٢٠٠٨ و ٢٠١١ في إطار أطروحةٍ في السوسولوجيا السياسية تتعلق بالنضال الفلسطيني في سوريا^٩، وكذلك بمساعدة ناشطين لبنانيين منخرطين في مساعدة اللاجئين^{١٠}. ولئن كان "التحقيق عن بعد" قد أصبح أداةً مستثمرةً بصورة خاصة، في مواجهة ازدياد قساوة النزاع في سوريا واستحالة وصول الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية إلى ميدان التحقيق^{١١}، فإنّ هذه الطريقة هي، في غالب الأحيان، مشرعةٌ بمعرفةٍ مسبقةٍ لهذا الميدان عينه. غير أنّ التحقيق عن بعدٍ يتضمّن في حالة هذا المقال عدداً من القيود. فقد أجري لدى نساءٍ ينتمين إلى بلد مغادرةٍ هو سوريا، محيطه مألوفٌ للكاتبة، لكنّهنّ أصبحن في بلد استقبالٍ جديدٍ هو لبنان، لم يُدرسن فيه. وقد أعدن صياغة سردهنّ للكاتبة من دون إمكانية وضع هذا السرد في البيئة

^١ في آذار/ مارس ٢٠١١، بدأت أولى المظاهرات التي طالبت بالإصلاح بدايةً ثم بسقوط نظام بشار الأسد. وقد واجهها قمعٌ غير مسبوق. تدريجياً، ترك الحراك السلمي الذي ساد في الشهور الأولى مكانه لنزاع مسلحٍ يتواجه فيه عددٌ متزايدٌ من الفاعلين المحليين والإقليميين والدوليين. حول مراحل النزاع السوري ودينامياته، انظر: آدم باكزكو وجيل دورونسورو وأرثور كيناي، **سوريا: تشریح حرب أهلية**، باريس، منشورات المركز الوطني للدراسات العلمية، ٢٠١٦؛ زياد ماجد، **سوريا: الثورة البيّمة**، منشورات أكت سود، باريس، ٢٠١٣؛ فرانسوا بورغا وبرونو باولي (إشراف)، **لا ربيع لسوريا. فاعلو الأزمة السورية وتحدياتها (٢٠١١-٢٠١٣)**، باريس، منشورات لاديكويرت، ٢٠١٣.

^٢ وفق المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، تسبب النزاع في نزوح ما يقارب ٦,٥ مليون شخص داخل سوريا وهجرة ٤,٥ مليون لاجئ إلى البلدان المجاورة (تركيا ولبنان والأردن والعراق).

^٣ انظر الإحصائيات التي نشرتها المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة في آذار/ مارس ٢٠١٦:

<http://data.unhcr.org/syrianrefugees/country.php?id=122>

^٤ هذه المعطيات مستقاة من الإحصائيات التي نشرتها وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين - الأونروا في أيار/ مايو ٢٠١٥. يجب توضيح أنّ الجالية الفلسطينية في سوريا كانت تعدّ قبل بداية النزاع حوالي نصف مليون نسمة وتنجت عن النمو السكاني لمجموعة اللاجئين الذين وصلوا منذ العام ١٩٤٨ على أثر قيام دولة إسرائيل على أراضي فلسطين التاريخية، وذلك عبر عدّة موجاتٍ من الهجرة. كان اللاجئون الفلسطينيون يسكنون بصورةٍ رئيسيةٍ في مخيمات قرب المدن السورية (دمشق وحلب ودرعا وحمص وحماة واللاذقية)، وكذلك ضمن النسيج المدني السوري.

^٥ كمال دربع وجلال الحسيني، "هشاشة وضع اللاجئين الفلسطينيين على ضوء الأزمة السورية"، **نشرة كونفلوانس ميديتيرانيه**، المجلد الرابع، العدد ٨٧، ٢٠١٣، ص. ٩٥-١٠٧.

^٦ لئن كان الفلسطينيون السوريون معروفين بأنهم قد استفادوا من أفضل شروط الاستقبال بالمقارنة مع بلدانٍ عربيةٍ أخرى، فهم لم يحصلوا على الجنسية السورية. يخضع وضعهم للقانون رقم ٢٦٠ الذي أقرّ في العام ١٩٥٦ والذي يعتبر من خلاله "الفلسطينيون المقيمون في أراضي الجمهورية العربية السورية كالسوريين أصلاً في جميع ما نصّت عليه القوانين والأنظمة النافذة وبحقوق التوظيف والعمل والتجارة وخدمة العلم مع الاحتفاظ بجنسيتهم الأصلية".

^٧ لقد احتفظنا بالأسماء الحقيقية بموافقة النساء المعنيات وأغفنا ألقابهن.

^٨ أقدم شكراً خاصاً لخليل خليل وأبهم السهلي للمساعدة القيمة التي قدّماها لإنجاز هذه المقابلات.

^٩ انظر: فالنتينا نابوليتانو، **الالتزام في اليرموك، سوسولوجيا النضال الفلسطيني في سوريا**، أطروحة دكتوراه في السوسولوجيا السياسية، مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في باريس، ٢٠١٥.

^{١٠} أقدم شكراً خاصاً لنوال مدللي ووفيق الهواري.

^{١١} حول التحقيقات الإثنوغرافية المجراة في سياق النزاع السوري، انظر: تيري بوايسير، "الأنثروبولوجيا في مواجهة النزاع السوري: إعادة وضع المجتمع في قلب التحليل"، **مجلة العوالم الإسلامية والبحر الأبيض المتوسط**، العدد ١٣٨، ٢٠١٥، ص. ١١٧-١٣٠.

الاجتماعية التي حدث فيها. وبالتالي، لا يمكن التأكد منه أو مقاطعته أو وضعه ضمن سياقه^{١٢}. ولهذا السبب، فإننا نميل إلى تقديم تلك المسارات في هذا المقال بوصفها شهاداتٍ ولا نزع منها تلقياً ضوءاً حصرياً على وضع مجمل الفلسطينيين السوريين اللاجئين إلى لبنان.

قبل المنفى: بين الالتزام الإنساني ونزعة التريث

قدم معظم الفلسطينيين الذي أتوا إلى لبنان بسبب النزاع من مخيم اليرموك^{١٣}. غير أنّ هذا المخيم ليس المخيم الفلسطيني الوحيد الذي تعرّض للقمع الذي مارسه النظام السوري للقضاء على المعارضة. فقد طال قصف الجيش السوري مخيمات اللاجئين في درعا واللاذقية وحمص منذ الأشهر الأولى، وذلك بسبب قربها من الأحياء السورية التي شهدت أولى المظاهرات، ما أدى إلى نزوح كثيف لسكانها^{١٤}. غير أنّ اليرموك يمثل أكبر تجمع فلسطيني في سوريا بعدد سكّانه الذي يقارب ١٥٠ ألف لاجئ مسجّلين رسمياً لدى الأونروا (وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين) في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢^{١٥}. يقع مخيم اليرموك جنوبي دمشق، قرب الطريق المؤدية إلى لبنان، وقد شهد منذ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢ مواجهات بين الجيش النظامي السوري ومجموعات المعارضة المسلحة. كما أنّ هذا المخيم يؤوي سكاناً معظمهم من الطبقات الوسطى لديهم حدٌ أدنى من الموارد المالية اللازمة لتولي نفقات الرحلة إلى لبنان والاستقرار فيه.

من بين المحادثات اللواتي أجريت معهنّ مقابلات، كانت اثنتان تعيشان في مخيم اليرموك. تبلغ دانية الثالثة والعشرين من عمرها، وكانت تدرس التصميم الغرافيكي في جامعة دمشق. بعد بداية الانتفاضة على النظام في سوريا، تحوّل مخيم اليرموك إلى مكان استقبالٍ لآلاف النازحين السوريين الهاربين من الأحياء المجاورة كالحجر الأسود^{١٦} والتضامن^{١٧}، وكذلك من المدن الأكثر تضرراً بقمع النظام السوري، ولاسيما حمص ودرعا^{١٨}، إذ إنّ المخيم بقي بعيداً عن أعمال العنف في السنة الأولى على الأقل. في مواجهة الأزمة الإنسانية التي واجهت مخيم اليرموك، انخرطت دانية في نشاطات تضامنية لصالح النازحين السوريين. وبما أنّها كانت تعرف أحد أعضاء "الهيئة الخيرية للشعب الفلسطيني"^{١٩}، فقد قرّرت النشاط ضمن تلك الهيئة وشاركت في نشاطات الدعم النفسي للأطفال النازحين وفي توزيع السلال الغذائية. دانية فلسطينية، لكنها تعتبر انخراطها "واجباً" تجاه السوريين الذين "كبرت وعاشت" معهم^{٢٠}. تحيل هذه الدوافع إلى تلك التي يقدها فلسطينيون آخرون كثر قرّروا الانخراط في الاحتجاج السوري بسبب عيشهم المشترك مع السوريين ومشاطرتهم لهم في تطلعاتهم السياسية والاجتماعية^{٢١}. وقد تحرّك عددٌ كبيرٌ من نساء مخيم اليرموك في تنظيم المساعدات للنازحين السوريين، وربما يفسّر ذلك بالمناعة النسبية التي يتمتّع بها وتسمح لهنّ بالانتقال بسهولة أكبر لجمع المساعدات وعبور حواجز الشرطة السورية.

تبلغ ربا الثامنة والعشرين من عمرها وهي حائزة على شهادة في الأدب العربي، وكانت هي أيضاً منخرطة في العمل الإنساني في اليرموك. قبل بداية الانتفاضة السورية، اضطرت تلك المرأة الديناميكية والناضجة إلى ترك عملها بسبب زيادة أعمال العنف، إذ بات الطريق بين اليرموك ومركز دمشق خطيراً. في هذا السياق من البطالة القسرية وفي مواجهة

^{١٢} لقد حاولنا على الرغم من ذلك مقاطعة المعلومات التي حصلنا عليها عبر هذه المقابلات الثلاثة مع تلك التي جمعتها مراكز أبحاث لبنانية اشغلت على وضع الفلسطينيين السوريين في لبنان. انظر بخاصة تقرير هشام دبسي ووفيق الهواري، "نتائج استبيان حول ما يريده اللاجئون الفلسطينيون المهاجرون من سوريا"، بيروت، مركز تطوير الدراسات الاستراتيجية والتنمية البشرية، ٢٠١٥. كما أننا وزعنا بمساعدة ووفيق الهواري، الباحث والناشط في المجال الإنساني، خمسة استبيانات على نساء فلسطينيات يقمن في لبنان، وبخاصة في منطقة صيدا، سمحت لنا بوضع المعلومات التي حصلنا عليها عبر المقابلات في سياقها.

^{١٣} هشام دبسي ووفيق الهواري، مرجع سابق، ص. ٧.

^{١٤} كانت مخيمات اللاجئين في مدن درعا واللاذقية وحمص معنية منذ الأشهر الأولى للنزاع. من أجل تسلسل زمني للانخراط الفلسطيني في الأزمة السورية، انظر: فالنتينا نابوليتانو، "حراك اللاجئين الفلسطينيين في خضم الثورة السورية: الانخراط في ظلّ الضغوط"، مجلة كولتور إي كونفلي، العدد ٨٧، ٢٠١٢، ص. ١١٩-١٣٧.

^{١٥} حالياً وبسبب النزاع، المخيم فارغ من سكانه الذين هربوا بأعداد كبيرة بسبب تصعيد القصف الذي تقوم به قوات النظام الساعية لاستعادة السيطرة على هذه المنطقة التي انتقلت السيطرة عليها إلى المعارضة السورية.

^{١٦} حي شعبي يقع جنوبي مخيم اليرموك ويسكنه بصورة أساسية نازحون من منطقة الجولان التي احتلتها إسرائيل في العام ١٩٦٧.

^{١٧} حي شعبي يقع شرقي اليرموك ويسكن فيه خليط فلسطيني سوري.

^{١٨} حول الطور الأول من الانتفاضة السورية، انظر: زياد ماجد، مرجع سابق، ص. ٥٣-٧٣.

^{١٩} هيئة خيرية ترتبط بحركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية، كانت قائمة قبل الانتفاضة السورية وركّزت مذاك على المساعدة الإنسانية.

^{٢٠} مقابلة عبر سكايب أجريت مع دانيا في آذار/مارس ٢٠١٦.

^{٢١} فالنتينا نابوليتانو، مرجع سابق، ص. ١٢٨.

أزمة متصاعدة، انتسبت ربا إلى هيئة مساعدة النازحين السوريين الذين استقبلوا في مدارس وكالة الغوث (الأونروا). من بين النشاطات التي ساهمت فيها، جمع الملابس والأغطية، والمساعدة النفسية، والبحث عن المفقودين.

حالة عتاب التي تبلغ الثانية والثلاثين من عمرها مختلفة عن الحالتين السابقتين. فهي لم تكن تسكن في اليرموك، بل في وسط دمشق، وبالنسبة إليها، لم ترتبط الانتفاضة السورية ببداية التزام. كانت عتاب تعمل صحافية لصالح قناة "العالم" الإيرانية والقناة الإخبارية الحكومية السورية، ووجدت نفسها في وضع معقد حين بدأت أولى المظاهرات في سوريا. وعلى الرغم من دعمها لمبادئ الاحتجاج السوري، فقد قالت بأن خوفها من القمع الوحشي الذي طبقه النظام السوري، ولاسيما العنف الممارس تجاه النساء، قد تغلب عليها. كما أنها تعتقد بأنه من الخطأ أن يتدخل الفلسطينيون في شؤون البلد الذي يستقبلهم. ولهذا السبب، قرّرت تبني موقف محايد.

مع تواصل الاحتجاجات وتشديد القمع الذي يمارسه النظام السوري، أصبح جو العمل غير قابل للتحمل بالنسبة إلى عتاب. إذ إن قنوات التلفزيون التي تعمل فيها تذكر الحكاية الرسمية التي يقدمها النظام وكثيراً ما تكون المعلومات مركبة بالكامل بهدف تعزيز هذه الحكاية. من جانب آخر، وحتى إن كانت قد بقيت بعيدة عن الاحتجاجات المناهضة للنظام، فإن عدم تعبيرها الصريح عن "ولائها" للنظام السوري عرضها للمشكلات، إذ نُسب إليها بحكم الواقع تعاطف مع المعارضة. باتت عتاب تتعرض أكثر فأكثر إلى ضغوط نفسية من زملائها الذين كانوا يشكّون في قربها من المعارضة. تزايدت هذه الضغوط على أثر اتخاذ حركة حماس الفلسطينية موقفاً لصالح الانتفاضة السورية^{٢٢}. منذ البداية، اتهم النظام السوري مجمل الفلسطينيين بـ"الخيانة" و"نكران الجميل". غير أن عتاب لم تقرر ترك عملها في آذار/ مارس ٢٠١٢ إلا بعد اعتقال زميلها مهندس، وهو أيضاً فلسطيني وكان منخرطاً في المظاهرات المناهضة للنظام، فقد رأت أن الوضع أصبح خطيراً عليها.

الطريق إلى لبنان والتردد في الذهاب إلى المنفى

في مواجهة تصاعد ضرب العنف التي عاشتها أولئك النساء، أصبح خيار مغادرة سوريا حتمياً. حدث رحيلهن بين العامين ٢٠١٢ و٢٠١٣، وهي الفترة التي شهدت أكثف هجرة نحو لبنان بالنسبة إلى الجالية الفلسطينية في سوريا^{٢٣}. يسمح عددٌ من التطورات على المستوى السوري بتفسير هذا التوقيت. بدايةً، تصعيد قصف الجيش النظامي لمخيم اليرموك الذي انتقل لسيطرة المعارضة، مع استخدام الطيران الحربي للمرة الأولى في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢، ما أدى إلى خروج السكان بالجملة من المخيم. بل إن الفلسطينيين السوريين يشيرون إلى هذا الحدث بوصفه "نكبة ثانية". في هذا التوقيت بالذات، غادرت كلٌ من دانية وربا المخيم مع أسرتهما للالتجاء عند أقارب في مدينة دمشق. تحوّل مخيم اليرموك آنذاك إلى ساحة معركة وخضع بالتدريج إلى حصار يمنع بموجبه الأشخاص من التجوّل وتحظر المواد الغذائية. ولئن كان سكان المخيم الذين نزحوا إلى دمشق، مثل ربا، قد وصلوا بدايةً الذهاب والإياب إلى المخيم ومنه، فلم يعد ذلك ممكناً منذ تموز/ يوليو ٢٠١٣، عندما أصبح حصار المخيم كاملاً^{٢٤}.

هكذا، يندرج خيار الذهاب إلى لبنان في سياق تصاعد العنف في سوريا، وهو عنف طال الفلسطينيين بخاصة. وكان لبنان مفضلاً أساساً بسبب وجود أقارب يستطيع اللاجئين الاعتماد عليهم لدى وصولهم، وكذلك بسبب القرب الجغرافي الذي يسمح بالذهاب إلى سوريا والعودة منها، وربما بالتفكير في العودة نهائياً بعد حل الأزمة.

بيد أن الطرق التي سلكها الفلسطينيون السوريون للذهاب إلى لبنان متباينة. ففي كانون الأول/ ديسمبر، وبعد أن أمضت دانية بضعة أيام في حيّ ركن الدين بدمشق، استقلت حافلةً إلى لبنان. وبعد انتظار دام عشر ساعات على الحدود السورية

^{٢٢} أقامت حماس مكتباً تمثيلاً في دمشق منذ العام ١٩٩٣، في إطار تحالف الفصائل الفلسطينية التي يدعمها النظام السوري بهدف معارضة اتفاقات أوسلو. وفي العام ١٩٩٩، نقلت الحركة مكتبها السياسي إلى العاصمة السورية وأصبحت سوريا بذلك جزءاً من "محور المقاومة"، وهو تحالف يضم سوريا وإيران وحزب الله اللبناني. بخصوص موقف حماس من الانتفاضة السورية، انظر: فالنتينا نابوليتانو، "حماس والثورة السورية: خيارٌ صعب"، *ميدل إيست بوليسي*، المجلد ٢٠، العدد ٣، خريف ٢٠١٣، ص. ٧٣-٨٥. انظر أيضاً: نيكولا دوت بويار، "الحركة الوطنية الفلسطينية والأزمة السورية: انقسام مسيطر عليه"، في فرانسوا بورغا وبرونو باولي (إشراف)، *لا ربيع لسوريا*، باريس، دار لاديكويرت، ص. ٢٦٤-٢٧٦.

^{٢٣} هشام ديسي ووفيق الهواري، *مرجع سابق*، ص. ٩.

^{٢٤} كلمة عربية تعني "الكارثة". استخدمها المفكر السوري قسطنطين زريق لأول مرة للإشارة إلى أحداث العام ١٩٤٨. ثم تبناها الفلسطينيون للإشارة إلى قيام دولة إسرائيل على أراضي فلسطين التاريخية.

^{٢٥} بخصوص الحصار الذي يفرضه النظام السوري على مخيم اليرموك ومناطق أخرى جنوبي دمشق وشرقيها، انظر: فالنتينا نابوليتانو، "جحيم اليرموك، المخيم الفلسطيني في سوريا"، *الجوع أو الركوع*، أوريان، شباط/ فبراير ٢٠١٤.

- اللبنانية، تمكّنت من الدخول إلى الأراضي اللبنانية. استقرت بدايةً مع أسرته في مخيم شاتيلا ببيروت، بسبب الوجود الفلسطيني وبخاصةً لأنّ الإيجارات فيه أرخص. لكنّ شروط الحياة في المخيمات الفلسطينية في لبنان أدنى بكثيرٍ منها في سوريا. ولذلك، قرّرت دانية وأسرتها الذهاب إلى أقارب في مدينة صيدا حيث يستقر عددٌ كبيرٌ من الفلسطينيين السوريين.

بالنسبة إلى ربا، كانت الرحلة إلى لبنان أكثر تعقيداً. ففي آذار/ مارس ٢٠١٣، ذهبت إلى الحدود مع أختها. أخضعتها الشرطة السورية لاستجوابٍ ومنعتها من عبور الحدود. عادت إلى دمشق وحاولت مجدداً السفر بعد بضعة أسابيع، بصورة غير شرعية هذه المرة. دفعت لمهربٍ أوصلها إلى وسط بيروت. ثمّ التحقت بأسرتها التي كانت تقيم في مخيم عين الحلوة، بصيدا. أمّا عتاب التي كانت مهتدةً بالاعتقال في سوريا، فقد غادرتها في آذار/ مارس ٢٠١٢ بصحبة أسرته. أقامت في منطقة وادي الزينة، قرب صيدا، عند أعمامها، في حين عادت أسرته إلى دمشق.

يتباين تعامل السلطات اللبنانية مع الفلسطينيين السوريين ونمط تصريح الإقامة الذي تمنحه لهم وفق حقبة الوصول إلى لبنان والطريق المسلوكة (شرعية أو غير شرعية). لكنّ عموماً، يخضع هذا التعامل دائماً لقراراتٍ اعتباطية. وبالفعل، لا توجد سياسة محددة للتعامل مع وجود الفلسطينيين السوريين الذين لا يستفيدون من المعاملة المخصصة للاجئين الآخرين وهم بالتالي يبقون في حالة ضبابية قانونية^{٢٦}. ولئن كانت دانية وعتاب قد تمكّنتا من الحصول لدى وصولهما على تصريح إقامة سياحية لمدة شهر، فهما لم تتمكنا من تجديده لاحقاً وهما تقيمان حالياً على الأراضي اللبنانية بصورة غير نظامية. ولذلك، فهما تضطران للانتقال باحتراس وتخشيان ترحيلهما إلى سوريا، وهو أمرٌ حدث بالنسبة إلى فلسطينيين آخرين. ولهذا السبب، تؤكد عتاب بأنّها تخشى حتّى من الذهاب إلى مكتب الأمن اللبناني لتجديد تصريح إقامتها.

"عندما وصلت، حصلت على تصريح إقامة لمدة شهر. ثمّ بقيت وقتاً طويلاً من دون تصريح حتى كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٥، عندما صدر عقوٌّ ومُنح الفلسطينيون تصاريح إقامةٍ لمدة ثلاثة أشهر. آنذاك، ذهبت إلى الأمن العام، لكن مع أعمامي، لأنني كنت خائفة! قلت بأنني أسكن عندهم ولم أقل شيئاً عن عملي كصحافية في لبنان... كنت خائفة جداً من أن يعيدوني مجدداً إلى سوريا. فبين العامين ٢٠١٤ و٢٠١٥، طُرد كثيرٌ من الفلسطينيين السوريين [...]"^{٢٧}

أمّا ربا التي دخلت إلى لبنان بطريقة غير نظامية، فهي لم تتمكن من الحصول على تصريح إقامة إلا في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٥، عندما مُنحت تصريحاً لمدة ثلاثة أشهر، لم يجدد لاحقاً بسبب دخولها غير النظامي إلى البلاد. بالتالي، يعرّض الوضع القانوني غير النظامي هؤلاء النساء لوضع هشاشة بارزة وللخشية الدائمة من إعادتهن إلى سوريا مثلما تذكر عتاب:

"منذ أسبوعين، كنت عائدة من بيروت إلى صيدا. وأثناء تفتيش للشرطة، أخذوا أوراقتي ورأوا أنّ إقامتي منتهية الصلاحية. فقال لي الشرطي: "يجب أن نأخذك معنا!" بدأت أبكي، ثمّ سعى الرجال الموجودون في الحافلة إلى نثيه عن ذلك... لقد كان ذلك كافياً لأن أنغمس في حالةٍ من الاكتئاب... لم أعد أريد مواجهة مثل هذا الأمر، مثل هذا الخوف الدائم من الإعادة إلى سوريا [...]"^{٢٨}

في مواجهة تواصل الأزمة السورية، وضعت السلطات اللبنانية تدريجياً تقييداتٍ للحدّ من دخول الفلسطينيين السوريين. هكذا ومنذ صيف العام ٢٠١٤، أغلقت الحدود أمامهم. كما أنّ تجديد الإقامة، عندما يكون ممكناً، أصبح يُمنح مقابل مئتي دولار للشخص الواحد، وهو مبلغٌ لا تستطيع تحمّله أسرةٌ كبيرة العدد. تزايد عدد الحواجز وحالات التفتيش التي تقوم بها الشرطة، ولاسيما على مداخل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. بل إنّ ربا تحكي كيف سُجن أفراد مجموعةٍ من تسع فتيات وخمسة عشر فتى في مخيم عين الحلوة لافتقارهم إلى الأوراق النظامية، ما أدّى إلى مظاهراتٍ تطالب بإطلاق سراحهم.

بخصوص تولّي شؤون الفلسطينيين السوريين الواصلين إلى لبنان من الناحية الإنسانية، فإنّ المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة ليست هي التي تقوم بهذه المهمة مثلما تفعل بالنسبة إلى السوريين، بل الأونروا، الوكالة الأممية التي أنشئت خصيصاً في العام ١٩٤٩ لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين في البلدان المجاورة لفلسطين التاريخية وفي الأراضي المحتلة. تتمكّن هذه المنظمة التي تواجه عجزاً مالياً منذ وقتٍ طويلٍ من تأمين الخدمات في مجال التعليم، لكنّها عاجزة إلى حدٍ كبيرٍ عن تلبية الحاجات في مجال الرعاية الصحية. من جانبٍ آخر، ولئن كانت المنظمة تمنح مساعداتٍ مالية وسلالاً غذائيةً للفلسطينيين السوريين، فقد توقّفت هذه المساعدات في شهر شباط/ فبراير ٢٠١٦، ما أدّى إلى مظاهرات احتجاج.

^{٢٦} حول هذا الموضوع، انظر: كمال دريع وجمال الحسيني، "هشاشة وضع اللاجئين الفلسطينيين على ضوء الأزمة السورية"، **كونفلوانس ميديتيرانيه**، المجلد الرابع، العدد ٨٧، ٢٠١٣، ص. ٩٥-١٠٧.

^{٢٧} مقابلة عبر سكايب أجريت مع عتاب في آذار/ مارس ٢٠١٦.

^{٢٨} المرجع نفسه.

على الرغم من الهشاشة الناجمة عن غياب تعامل قانوني محدد وتولّد مناسباً للمسؤوليات من الهيئات الدولية، ما كان يمكن أن يؤدي إلى انطواء اللاجئين الفلسطينيين السوريين على أنفسهم، ولا سيما المكوّن النسائي بينهم، فقد رأت أشكالاً من النشاط والحراك النور.

التزامات جديدة وفك ارتباط

في سياق الأزمة التي أدّى إليها وجود أكثر من مليون ونصف المليون لاجئ سوري في لبنان والتسييس المتزايد الناجم عن النزاع، تم تأسيس جمعيات ومنظمات إنسانية متعددة بمبادرة من سوريين وفلسطينيين سوريين ولبنانيين. تشكّل هذه الجمعيات والمنظمات في بعض الحالات مكان إعادة تحوّل لِمناضلين كانوا قد انخرطوا في الحراك لصالح الانتفاضة السورية ويرغبون في مواصلة انخراطهم الاجتماعي والسياسي، حتى في المنفى. من بين النساء المستجوبات، قامت كلٌّ من دانية وربما بنشاطات اجتماعية بعد استقرارهما في لبنان.

تطوعت دانية بدايةً في منظمة نجدة ناو^{٢٩} في مخيم شاتيلا، ثم في منظمة جسور^{٣٠} حيث تعمل كمدرسّة. بفضل شبكة المعارف التي نسجتّها دانية في اليرموك في إطار التعبئة تضامناً مع النازحين السوريين، تمكّنت من الدخول إلى هاتين المنظمتين اللتين أسسهما ناشطون سوريون. وبسبب عدم حيازتها على تصريح بالإقامة، تعمل في السوق السوداء، لكنّها تتمكّن من الحصول على راتب رمزي بوصفها متطوعة.

أمّا ربا، فقد ارتبط وصولها إلى لبنان بدايةً بمرحلة من الاكتئاب الناجم عن الشدة النفسية التي عاشتها قبل تمكّنها من مغادرة سوريا. غير أنّ ربا تمكّنت بفضل تشجيع أهلها من الحصول على عمل في مدرسة لبنانية خاصة حيث أعطت دروساً لطلاب سوريين تمهيداً لاجتيازهم امتحان الشهادتين الإعدادية والثانوية في سوريا. وفي هذا السياق، بدأت تتألف مع المشكلات النفسية التي يواجهها اللاجئون الشباب بسبب تداعيات النزاع. وقد شجّعها ذلك على مزيد من الانخراط في تنظيم نشاطات تهدف إلى مساعدة الشباب. كما أنّ حادثة معينة دفعت ربا إلى الاهتمام بالدفاع عن اللاجئين وعن حقوق الإنسان عموماً. ففي العام ٢٠١٤، ذهب أحد طلابها إلى سوريا لتقديم امتحان الشهادة الإعدادية وعلق على الحدود السورية اللبنانية لمدة تجاوزت الأسبوع. وبهدف حلّ هذه المشكلة، بدأت ربا تتواصل مع مختلف منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان.

"لم أكن أعلم تمامًا ما هي مشكلة ذلك الصبي، لكنّها كانت الفترة التي أغلقت فيها السلطات اللبنانية الحدود أمام الفلسطينيين السوريين. آنذاك، حاولت التواصل مع الناس من حولي، مع ناشطين. تواصلت مع لجنة فلسطينية سوريا في لبنان، في مخيم عين الحلوة... وتواصلنا معاً مع منظمة العفو الدولية، وبدأت النداءات تنتشر على الإنترنت، وأبلغنا سفارة فلسطين... عبر هذه الحادثة، تعرّفت على ناشطين من المنظمة الفلسطينية لحقوق الإنسان في مخيم مار إلياس والتي كانت تنظّم تأهيلاً لتوعية اللاجئين بحقوقهم في لبنان وطلّبت مني المشاركة فيه."^{٣١}

بعد حصول ربا على تأهيل حول حقوق اللاجئين في لبنان، بدأت تذهب أكثر فأكثر إلى مخيمات اللاجئين السوريين وواصلت حضور دروس التأهيل في مجال توثيق انتهاكات حقوق الإنسان. في صيف العام ٢٠١٤، شاركت في تنظيم تعبئة لصالح إطلاق سراح مجموعة من الفلسطينيين الذين تحتجزهم السلطات اللبنانية بسبب وضعهم غير النظامي. وبالتوازي مع تلك المشاركة، وثّقت حالات الاستغلال في مكان العمل، وكذلك حالات التحرش الجنسي الذي يتعرّض له الناس من حولها. ورغبةً في تكريس نفسها على نحوٍ أكثر نوعيةً لمساعدة المراهقين، قرّرت كذلك أن تؤسس مع أختها الصغرى فرقة دبكة أطلقت عليها اسم "فرقة 'لاجئ' للتراث والفنون الشعبية الحديثة"، تضمّ شباباً سوريين وفلسطينيين ولبنانيين. وقد واصلت هذا النشاط على الرغم من المصاعب التي صادفتها في مخيم عين الحلوة بوصفها امرأة ستضطر للعمل مع فرقة تتشكّل بصورة رئيسية من رجال وعلى الرغم من أنّ عدّة أشخاص حاولوا ثنيها عنه.

^{٢٩} منظمة غير حكومية تأسست في العام ٢٠١٢ في سوريا ونقلت إلى لبنان على أثر تواصل النزاع. وهي ناشطة بخاصة في مجال تقديم المساعدات الإنسانية في سوريا وبين اللاجئين السوريين في لبنان. راجع صفحة المنظمة على الشبكة العنكبوتية:

www.najda-now.net

^{٣٠} تأسست جمعية جسور في حزيران/يونيو ٢٠١٣ ويتمحور عملها بخاصة على تعليم اللاجئين السوريين الذين لم يتمكنوا من دخول المؤسسات المدرسية اللبنانية.

^{٣١} مقابلة عبر سكايب أجريت مع ربا في آذار/مارس ٢٠١٦.

لفتت ربا الانتباه بفضل نشاطها وقدراتها، فوظفتها منظمة لبنانية هي "جمعية التنمية للإنسان والبيئة"^{٣٢}، كما أنها واصلت في الوقت عينه نشاطاتها التطوعية، ولاسيما في إطار مبادرات مكرسة للدفاع عن حقوق الفلسطينيين السوريين. بالنسبة إلى ربا، يمثل لبنان بالتالي بداية نشاط اجتماعي مكثف في سياق حراك متزايد ولدته الأزمة السورية. كما أن هذه الدينامية تسمح لربا بمقاومة وضع الهشاشة الذي تعيشه يومياً بسبب الانتقال والذي تزايد بعد رحيل جزء من أسرتها إلى الخارج.

خلاقاً لذلك، المنفى اللبناني رديف فترة انعزالٍ وعدم حراكٍ بالنسبة إلى عتاب. فقد توصلت هذه الصحافية الشابة إلى الحصول على وظيفة في قناة "القدس" التلفزيونية الفلسطينية، غير أنها تشعر بأن مكانتها الوظيفية أدنى مما ينبغي بما أنها تشغل وظيفة أقل أهمية مما في الماضي وتتلقى راتباً أدنى من زملائها. وفي حين أنها لم تكن ملتزمة سياسياً في سوريا بل كانت لديها حياة نشيطة جداً من وجهة نظر اجتماعية وثقافية، فهي تشعر في لبنان بأنها معزولة وليست لديها الموارد المالية الكافية لتدفع أجرة المواصلات لحضور النشاطات التي تجري في العاصمة اللبنانية. من جانب آخر، أثنائها رحيل جزء لا بأس به من أصدقائها الذين كانوا نشيطين في الانتفاضة السورية عن الترويج لأي مبادرة سياسية أو اجتماعية. ينحصر نشاطها بنشر المعلومات التي تهدف إلى إبراز إعلامي لبعض الإشكاليات أو بعض الأشخاص الذين يعانون من مصاعب. غير أن هذا الانعدام في الحراك مصدرٌ للإحباط لدى عتاب، إضافة إلى وضعها المهني ووضعها القانوني غير النظامي.

إذاً، كانت مفاعيل النزوح القسري والنزاع السوري على أولئك النساء الفلسطينيات متباينة، تتضمن في بعض الأحيان فرط استثمار في الفعل الاجتماعي، وفي حالات أخرى انطواءً على الدائرة الخاصة. كما أن مستوى الاندماج الاجتماعي وتحقيق الذات يؤدي إلى تصور مختلف لمجتمع الاستقبال، على الرغم من ملاحظتنا بأن هؤلاء النساء الثلاث يتشاطرن كثيراً من التصورات الجماعية.

التعامل مع مجتمع الاستقبال الجديد

يجب فهم تفاعل اللاجئين الفلسطينيين مع المجتمع اللبناني في سياق الأزمة الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية الناجمة عن النزاع السوري في لبنان، وفي الوقت عينه عبر مجموعة من التصورات الجماعية المرتبطة بتاريخ هذا البلد الذي يبقى فيه الوجود الفلسطيني موضوعاً حساساً وذلك بسبب ضروب التمييز التي يواجهها الفلسطينيون^{٣٣}، وكذلك على ضوء إرث الحرب الأهلية اللبنانية.

في البداية، تصف دانية و ربا و عتاب العلاقة بالمجتمع اللبناني بتعبيراتٍ سلبية. وهنّ يذكرن أقوالاً تمييزية نقوه بها لبنانيون تجاههن، أو حالات تحرشٍ جنسي أو سلوك غير المتوقع لضباط الشرطة أثناء التدقيق في الأوراق.

"كان أول احتكاكٍ بالمجتمع اللبناني قاسياً. كنت أصعد في سيارات الأجرة وأسمع السائقين يقولون: "ماذا عن هؤلاء السوريين الذين سرقوا البلد منا؟" كان ذلك صعباً... لم أكن أستطيع النقاش مع السائق، بسبب عدم جدوى مثل هذا النقاش... لسوء الحظ، كان عددٌ من المثقفين يتبنون وجهة النظر عينها. كانوا يقولون لي: "لكن ماذا تريدون من الثورة؟" وكنت أقول لهم: "وما أدر اكم؟ من قال لكم بأنني كنت أشارك في الثورة عندما قُصف بيتي...". في البداية، كان لدي تصورٌ شديد السلبية عن المجتمع اللبناني!"^{٣٤}

ترى عتاب بأن المصاعب التي يتعرض لها مجمل اللاجئين السوريين في تفاعلهم مع مجتمع الاستقبال مضاعفة بالنسبة إلى الفلسطينيين بسبب جنسيتهم، وهذه الأخيرة مصدر نفورٍ في لبنان.

"عموماً، لا يحب اللبنانيون الفلسطينيين، فكيف إذا كانوا فلسطينيين وسوريين في آنٍ معاً!"^{٣٥}

^{٣٢} منظمة غير حكومية تأسست في لبنان في العام ٢٠٠٣ وتقدم مشاريع متعددة في مجال التنمية البشرية.
^{٣٣} تتعلق ضروب التمييز هذه بخاصةً بالحق في العمل بما أن الفلسطينيين اللبنانيين مستبعدون من ممارسة عددٍ كبير من المهن في القطاعين الخاص والعام. وهم يشكلون بذلك إحدى الشرائح الاجتماعية الأقل حظاً في المجتمع. حول وضع اللاجئين الفلسطينيين في البلدان العربية، راجع: جلال الحسيني، "وضع اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى. عامل بقاء أم عامل تنويب للهوية الوطنية الفلسطينية؟"، في جلال الحسيني وأود سينيول (إشراف)، الفلسطينيين بين الأمة والشتمات - زمن الايقنيات، باريس، IISMM، كارثالا، ٢٠١١، ص. ٣٧-٦٥.

^{٣٤} مقابلة عبر سكايب مع ربا في آذار/ مارس ٢٠١٦.

^{٣٥} مقابلة عبر سكايب مع عتاب في آذار/ مارس ٢٠١٦.

غير أنّ هذه الاعتبارات العامة تمايزت في زمنٍ لاحق. فقد دفع العمل كلاً من ربا وعتاب إلى الالتقاء بلبنانيين ينتمون إلى شرائح اجتماعية أكثر تعليماً ومن الوسط الثقافي، أبداً لهما دعمهم وارتبطتا بهم بعلاقات صداقة.

"عندما انتسبت إلى جمعية التنمية، تبدّلت وجهة نظري في المجتمع اللبناني. لقد التقيت بأناسٍ جميلين عاملوني بوصفي كائنًا بشرياً وقدموا لي دعماً نفسياً كبيراً ودعموا مشاريعي!"

تحكم التفاعل بين هؤلاء النساء اللاجئات والمجتمع اللبناني دينامياً وتصوراتٍ مشتركة بين مجتمعاتٍ أخرى تواجه ظواهر هجرة على نطاقٍ واسعٍ وهي مصدر عدم استقرارٍ سياسي واقتصادي في بلد الاستقبال. لكن في لبنان، يواجه الفلسطينيون السوريون كذلك بمكونٍ نوعيٍّ في المجتمع، تمثّله الجالية الفلسطينية المحلية، وتتمثّل المفارقة في أنّ الشقاق هو الأقوى مع هذه الجالية.

وبالفعل، تلاحظ دانية و ربا وعتاب فوارق ملحوظة بين المجتمع الفلسطيني في سوريا ومثيله في لبنان. كما أنّهم يدركون غياب التضامن مع اللاجئين القادمين من سوريا، إذ بدلاً من التعامل معهم بعناية خاصة بوصفهم "يشاركونهم الانتماء"، يستغلونهم وفق أفواههم أكثر ممّا يستغلون اللاجئين السوريين.

"عندما كنت في مخيم شاتيلا، كان فلسطينيو المخيم يؤجروننا شقاً بأسعار باهظة... لقد حاولوا على الفور استغلال الوضع! لم يكن هنالك تضامنٌ معنا بوصفنا فلسطينيين، بل كانوا يعاملوننا على العكس من ذلك بأسوأ ممّا يعاملون السوريين!"^{٣٦}

صادفت عتاب هي أيضاً مصاعب كثيرة في إقامة تواصلٍ مع الفلسطينيين في لبنان. وفي رأيها، يعود السبب في أمراض الفلسطينيين ومشكلاتهم الاجتماعية إلى التاريخ الطويل من مواجهة العنف والتهميش. كما أنّها تشجب محاولات الاستغلال، ولاسيما من القناة الفلسطينية التي تعمل فيها والتي تمنحها راتباً أدنى من راتب زملائها الفلسطينيين اللبنانيين.

"أعتقد أنّ تاريخ الفلسطينيين اللبنانيين قد صاغ علم نفسٍ جمعي، حالة مرضٍ جماعي. لا أتوصّل إلى إقامة علاقات معهم (...). وفي حين أنّنا كنا دائماً متضامنين مع الفلسطينيين اللبنانيين، واجهنا ردّ فعلٍ معاكساً! لقد استغلوا الوضع ورفعوا إيجار الشقق في المخيمات، مع علمهم بأننا لاجئون، بأننا فلسطينيون مثلهم. كان من المفترض أن يساعدونا! عندما بدأت العمل لصالح قناة القدس، شعرت بأنّ ذلك يزجج الفلسطينيين اللبنانيين، كما لو أنّي قد سرقت عملهم منهم (...)"^{٣٧}

أخيراً، ثمة عاملٌ آخر يفاقم الشقاق بين الفلسطينيين السوريين واللبنانيين، يتمثّل في الموقف الذي تبناه جزءٌ من الفلسطينيين لصالح الاحتجاج السوري؛ وهو موقفٌ يُنظر إليه بوصفه غير مبررٍ بسبب شروط الحياة الحسنة التي تمنحها السلطات السورية للاجئين الفلسطينيين^{٣٨}.

"كثيراً ما قيل لي: "أنتم الفلسطينيون السوريون كنتم تتمتعون بجميع الحقوق... لم يكن لديكم سبب للتمرد!" كما لو أنّ علينا شكر النظام على حقوقنا... في رأيي، علينا بالأحرى أن نشكر الشعب السوري، لا النظام... لأنّ كنت قد حصلت على حقوقي، فذلك عبر قانونٍ أقرّ قبل وصول النظام الحاكم بوقتٍ طويل... لكنّ الفلسطينيين اللبنانيين لا يعلمون ذلك! ثمة كثيرٌ من الجهل والسطحية..."^{٣٩}

كذلك، لم يساعد سلوك الفصائل الفلسطينية في تحسين العلاقة بين الفلسطينيين السوريين واللبنانيين. تنتقد النساء الثلاث الفصائل السياسية، ولاسيما تلك المنتمة إلى منظمة التحرير الفلسطينية التي يتهمنها في السياق السوري باتخاذ موقفٍ لصالح النظام السوري. في لبنان، تُتهم هذه المنظمات عينها بالمشاركة الكاملة في التمييز ضد الفلسطينيين وبالعجز عن الضغط على السلطات اللبنانية كي يصاغ قانونياً وضعهم في البلد.

لبنان كمرحلة مؤقتة قبل منفى جديد

^{٣٦} مقابلة مع دانية عبر سكايب في آذار/ مارس ٢٠١٦.

^{٣٧} مقابلة عبر سكايب مع عتاب في آذار/ مارس ٢٠١٦.

^{٣٨} لقد ساعد الوضع القانوني الجيد الممنوح للاجئين الفلسطينيين السوريين على اندماجهم الاجتماعي الاقتصادي في البلد.

^{٣٩} مقابلة عبر سكايب مع ربا في آذار/ مارس ٢٠١٦.

في حين أنّ دانية وربا وعتاب قد اندمجن في نهاية المطاف اجتماعياً أو مهنيًا في لبنان، فإنّ بلد الاستقبال هذا لا يمثل بالنسبة إليهنّ إلاّ مرحلة مؤقتة. فالنساء الثلاث يعترزن الانتقال إلى بلدٍ ثالث. بالنسبة إلى دانية، تكمن أسباب الانتقال اللاحق في شروط الحياة الصعبة وعدم الاستقرار المعاش في لبنان.

"أنا لا أرى مستقبلي في لبنان! كيف لي ذلك إن كان سكان البلد أنفسهم لا يرون فيه مستقبلهم! نرغب أنا وأسرتي في الرحيل، فنحن نجد الحياة هنا معقدة غاية التعقيد، وليس هنالك عمل، والحياة مكلفة، والرعاية الصحية باهظة التكاليف... الوضع صعب... لكن في الوقت عينه، ليس لدينا أملٌ كبيرٌ في الحصول على تأشيراتٍ للخارج لأننا فلسطينيون سوريون!"^{٤٠}

أمّا ربا، فهي تنتظر أول فرصةٍ تسنح لها للحاق بأسرتها التي سبق أن سلكت طريق الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا.

"سأعادر لبنان فور أن أتمكن من ذلك! إنّه بلدٌ ظالم! أبي موجودٌ حاليًا في اليونان، وأمّي وجزءٌ من إخوتي أصبحوا في هولندا. لقد بقيت هنا مع أختي وأخي الصغير. ربما شاء الله أن أبقى في لبنان لأنّ الناس هنا بحاجةٍ إليّ أكثر من حاجةٍ لأسرتي لي، من يدري..."^{٤١}

بالنسبة إلى عتاب التي لا تزال أسرتها في سوريا، خاب أملها في التمكن من العودة إلى البلد. والسفر إلى الخارج هو الحلّ الوحيد الممكن. وهي تتمنّى الخلاص من الهشاشة ومن صنوف الظلم التي تواجهها في لبنان.

"لا يزال يحدوني الأمل في أن تنتهي الأزمة في سوريا وأتمكن من العودة، لكنّ الحلّ الواقعي الوحيد اليوم هو الهجرة إلى بلدٍ يمنحني تصريحًا بالإقامة! لم أعد أريد التعرّض للإهانة مجددًا! أريد الذهاب إلى بلدٍ يحترمني!"^{٤٢}

على الرغم من قرب لبنان الجغرافي والثقافي مع سوريا، فهو لا يوفّر الشروط اللازمة لاستقرار طويل الأمد للاجئين الفلسطينيين السوريين بسبب غياب التعامل القانوني المناسب. يضاف إلى ذلك واقع أنّ إمكانية حلّ النزاع السوري لا تزال تبدو أبعد وأنّ الفلسطينيين السوريين هم أساسًا أناسٌ ليس لهم وطن؛ وهذا يشجعهم أكثر على سلوك درب الهجرة إلى الغرب، بهدف التمكن من الحصول على وثائق حقيقية.

الخلاصة

على مدى هذا المقال، نظرنا إلى مسار الهجرة وأشكال الالتزام التي تتولاها ثلاث نساءٍ فلسطينيات لاجنات في لبنان. وقد أظهرنا أنّ النزوح القسري يمارس تأثيراتٍ متباينة وفق المسار النوعي لكلّ امرأةٍ وضروب انخراطهنّ السابقة. في حالة دانية وربا، لاحظنا وجود استمراريةٍ بين أشكال التبعيّة التي بدأت في سوريا، ولاسيما في إطار الانتفاضة ضد النظام التي بدأت في آذار/ مارس ٢٠١١، والأشكال التي تواصلت في لبنان. في سياقٍ من التسييس الذي تغذيه أصداء الاحتجاج السوري في هذا البلد، تمثّل مواصلة التزمّ في المنفى بالنسبة إلى دانية وربا وسيلةً للاندماج الاجتماعي تسمح بإعادة نسج علاقاتٍ حطّمها النزوح. فضلًا عن ذلك، يسمح لهما هذا الالتزام بتجاوز وضع من الهشاشة النفسانية أدى إليه النزاع والنزوح. وعلى العكس من ذلك، في حالة عتاب التي لم تكن تسكن في مخيم اليرموك وكانت تتأى بنفسها عن التحشيدات المناهضة للنظام في سوريا، كان المنفى في لبنان بالأحرى مصدرًا للانتزاع من الجذور وانعدام الأمان والانعزال. يتصاحب الضعف الذي أدى إليه المنفى في أشكال المخالطة السابقة مع نقصٍ في الاستثمار الاجتماعي والسياسي.

أمّا في ما يخص تأثير النوع الاجتماعي في النضال في المنفى، فيظهر هذا المقال أنّه لا يشكّل بالنسبة إلى محادثتنا قيدًا وأنّه لا يُذكر إلاّ بطريقةٍ منقطعة، كما أنّه لا يُذكر أبدًا بوصفه عقبةً أمام نشاطهن. يمكن تفسير ذلك بصورةٍ أساسيةٍ بالملامح السوسولوجية لهؤلاء النساء اللواتي يتشاركن جميعًا في مستوى تعليمٍ عالٍ سمح لهن، حتى في المنفى، بالوصول إلى إنجازٍ شخصيٍّ ومهنيٍّ غير قليل. وعلى الرغم من التصور المختلف لوضعهنّ في لبنان، فإنّ دانية وربا وعتاب تمكّن من الانخراط في مجالاتٍ مهنيّةٍ ونضاليّةٍ رفيعة: التعليم والدفاع عن حقوق الإنسان والإعلام. لكن يمكن

^{٤٠} مقابلة عبر سكايب مع دانية في آذار/ مارس ٢٠١٦.

^{٤١} مقابلة عبر سكايب مع ربا في آذار/ مارس ٢٠١٦.

^{٤٢} مقابلة عبر سكايب مع عتاب في آذار/ مارس ٢٠١٦.

بسهولة أن نتخيل أن ضغوط المنفى والنوع الاجتماعي تتراكم بالنسبة إلى نساء أتين من شرائح اجتماعية أدنى وتشكل مصدر استبعادٍ وتهميشٍ اجتماعي.

بالتالي، لا تمثل النساء اللواتي يقمن هذا المقال الوضع الذي يعيشه مجمل السكان الفلسطينيين السوريين تمثيلاً جيداً، بل إنهن بالأحرى نخبة هؤلاء السكان. غير أنهن يتشاركن مع مجمل الجماعة جزءاً من معاشها، تصوراتٍ وتوقعاتٍ نضجت في سياق النزاع والنزوح القسري. وتظهر مساراتهن في مجال الهجرة أن لبنان مفضلٌ بالنسبة إلى الفلسطينيين السوريين بسبب القرب الجغرافي ووجود الشبكات العائلية. لكن هنا، يواجه الفلسطينيون وضع عدم استقرارٍ تفاقمه المعاملة الاعتبارية التي تخضعهم لها السلطات اللبنانية بسبب وضعهم كلاجئين. كما أن التفاعل مع السكان في بلد الاستقبال مصدرٌ للشقاق وهو يؤدي إلى مزيدٍ من شعور الهشاشة الذي يدفع كثيراً من الفلسطينيين إلى الرحيل نحو بلدانٍ أخرى.

لائحة المراجع باللغات الأصلية:

Caroline Hala Abou Zaki, "Les réfugiés de Syrie dans le camp de Chatila: conflits de légitimité et solidarités entre «nouveaux» et «anciens» réfugiés," *Confluences Méditerranée*, vol. 1, No. 92, 2015, pp. 49-59.

Adam Baczko, Gilles Dorronsoro, Arthur Quesnay, *Syrie: anatomie d'une guerre civile*, Paris, CNRS Editions, 2016.

François Burgat, Bruno Paoli, (eds.) *Pas de printemps pour la Syrie. Acteurs et défis de la crise syrienne (2011- 2013)*, Paris, La Découverte, 2013.

Doraï Kamal Jalal Al Hussein, "La vulnérabilité des réfugiés palestiniens à la lumière de la crise syrienne," *Confluences Méditerranée*, vol. 4, No. 87, 2013, pp. 95-107.

Thierry Boissière, "L'anthropologie face au conflit syrien : replacer la société au cœur de l'analyse," *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, No. 138, 2015, pp. 117-130.

Hisham Dabsi and Wafiq al-Hawari, "Results of a survey concerning needs of Palestinian refugees coming from Syria," Beirut, Tatwir Centre for Strategic Studies and Development, 2015.

Nicolas Dot-Pouillard, "Le mouvement national palestinien et la crise syrienne : une division contenue," in François Burgat, Bruno Paoli (eds.), *No spring for Syria*, Paris, La Découverte, pp. 264-276.

Valentina Napolitano, *S'engager à Yarmouk. Sociologie de la militance palestinienne en Syrie*, PhD in Political Sociology, EHESS of Paris.

Valentina Napolitano, "La mobilisation des réfugiés palestiniens dans le sillage de la «révolution» syrienne: s'engager sous contrainte," *Cultures & Conflits*, No. 87, 2012, pp. 119-137.

Valentina Napolitano, "Hamis and the Syrian revolution: a difficult choice," *Middle East Policy*, vol. XX, No. 3, Fall 2013, pp. 73-85.

Ziad Majed, *Syrie: la révolution orpheline*, Paris, Actes Sud, 2013.